عن الفكرة. والشخصيات الثانوية لا تتحرك الا كايديولوجيا تقوم بمهمات الاسناد.

ولا يبقى من كل ذلك، الا مجموعة من الاحداث والشخصيات التي ترسم ظلالاً باهتة لتلك الاسقاطات أو المعادلات الذهنية التي أراد الكاتب أن يعبر عنها وبها.

□ □ □

وتحمل رواية «الباشا»[٢] طموحاً للتعبير عن العلاقة الترابطية بين الصراع الوطني والصراع الطبقي، فتشرع هي الاخرى من عمومية الفكرة وعمومية الحدث التاريخي: فعمومية الفكرة تعيد التأكيد على أن الانقطاع «سيء» وعاجز عن انجاز مهمات التحرر ومتواطيء. وهذا ما يؤكده الحدث التاريخي – سقوط فلسطين – الذي كشف عن هذه الحقيقة المفجعة!

ومن جديد، يعود الكاتب إلى ممارسة صنعته الخاصة التي يدمر، خلالها، الواقع ويبدد امكانات نسج العلاقات بينه وبين العمل الروائي الحريص على الاستقلال بخصوصيته كوهم مستقل.

وهم الرواية يتكرر مرة اخرى من خلال حشود الشخصيات التي تناظر الفكرة وترمز إليها، وحشد الاحداث التي تدعي مناظرة الوقائع الموضوعية والترميز التطابقي للاحداث التاريخية الكبرى. ويتجلى هذا الوهم أيضاً في مسرح الحدث الروائي، القرية الفلسطينية الكرتونية التي بناها الكاتب بالمادة ذاتها التي يبني بها أحداثه وشخصياته وعالمه الروائي لتمثل «فلسطين» بكاملها، فتفشل، لأن فشلها الأساسي يكمن في أنها أخفقت في تأكيد وجودها كقرية حقيقية ومقنعة.

لن نوقفنا شخصية الباشا ونمط حياتها، فهي صورة طبق الأصل وطبعة مكررة دون تنقيح مستمدة من صورته السائدة التي أسرفت السينما العربية في تقديمها حتى الافراط الممل والابتذال، حيث أصبحت كلمة «الباشا» كفيلة وحدها لرسم الشخصية سلفاً. وباشا أفنان القاسم لا يخرج عن هذا النمط بشكله الذي أصبح تقليدياً، ولا يتفرد بادنى صفة انسانية مميزة. فهو «رمز» الطبقة المتهالكة والمتواطئة مع الاعداء.

ولان شخصيات أفنان القاسم لا تحرص على ذاتها قدر حرصها على «الرمز» الذي تمثله وتعنيه، فانها تظل تتحرك أمامنا كنماذج مُقولبة ومحددة من الرموز التي تطمح إلى تحقيق تطابقها مع الافكار التي تمثلها ولا تتمثلها. فالخواجا هو «رمز» للحركة الصهيونية، ومستر كلارك «رمز» للاستعمار البريطاني، وحمدان «رمز» للنضال الوطني، وسعدية «رمز» للأرض، والاسطى حسن «رمز» للنضال الطبقي، والمهندس صادق «رمز» للخيانة الطبقية، وام ساره – المرأة اليهودية الطيبة «رمز» لفكرة التعايش، وسامي – ابن الباشا، المتميز بوطنيته وطيبة قلبه «رمز» للخروج والتمرد عن الطبقة... وغيرها من الشخصيات الرمزية. فيا له من عالم غني وثري بالرموز هو الذي يقحمنا أفنان القاسم في داخله!